الأدب والسياسة

يذهب الكثير من النقاد إلى أن الأدب هو صورة العصر ومرآة الحياة ، وهذا الوصف برغم ما فيه من صدق يظهر الأدب فى صورة القمر ، ذلك الكوكب المهجور الخالى من الحياة الذى لا يستبين للعيان إلا بما ينعكس عليه من أضواء الشمس . والواقع أن الأدب أجل من ذلك شأناً وأوفر قوة وأبعد أثراً ، وهو بحساسيته الشفافة المرهفة ، وعينه اليقظة الساهرة ، وحرصه على استيعاب كل شيء والإحاطة بالحياة من جميع نواحيها يحاول أن يتابع الحياة فى إبداعها المستمر ، ويلاحقها فى وثباتها المتتابعة ، ويسجل تقلباتها ، ويقيد شواردها ، ويرسم ظلالها المنوعة وألوانها العديدة ، وهو بهذا الصراع العنيف يضطر الحياة إلى أن تجلو أسرارها وتكشف عن حقائقها ، ومن ثم تختلف صور الآداب تبعاً لاختلاف صور الحياة وطبائع العصور .

ويستهدف الأدب فى العصر الحاضر لمؤثرات كثيرة ، أوضحها وأعظمها دلالة السياسة وعلم النفس والاختراعات العلمية الحديثة . والسياسة فى أشمل معانيها هى علاقة الفرد بالمجتمع من ناحية وعلاقته بالدولة من ناحية أخرى . والأدب كما هو معروف يقوم على المزاج الفردى ، ولذا قد ينكر بعض المفكرين علاقته بالمجتمع وتأثره بالدولة . وقد نتساءل ما شأن الكاتب بقيام الدول وسقوطها وتماسك الجماعات وانحلالها ؟ أليس له من برجه العاجى وشعوره الصوفى ما يجعله بمعزل عن تقلبات الحوادث وغير الدهر ؟ وكيف لا يذوى فنه وتضعف شخصيته إذا غمره المجتمع وجرفه تياره وسال به سيله ؟ ولكن العلاقة

بين الأدب والسياسة علاقة قديمة ، وقد طبعت السياسة بطابعها الأدب اليونانى والأدب الرومانى والأدب الإسلامى فى مختلف عصوره ، وزادت فى ثروته وأبعدت صوته ووطدت من مكانة رجاله . ومازال الكاتب منذ نشأة الأدب وهو لسان قومه الناطق ، وقلبهم الخافق ، فعندما يتحلل المجتمع ويشيع فيه الفساد يبدو فى حديثه القلق والتبرم والألم المضيض والحزن الموجع . وليس من المستنكر فى العصر الحاضر الذى تضطرب فيه أحوال المجتمعات الإنسانية ، وتتقلقل الأوضاع ، أن يجبر الكاتب على أن يفكر تفكيراً سياسياً ويطيل التأمل فى العلاقات الاجتماعية والأحوال العالمية ، وليس فى وسعه من حيث هو إنسان أن يتخلى فى هذا الموقف عما عليه من واجبات وينسى ما فى ذمته من ودائع ،

وقد طغت السياسة على الأدب فى العصر الحاضر طغياناً شديداً ، وكتاب العصر معنيون بالسياسة إلى حد لم يعهد فى كتاب العصور الحديثة منذ الثورة الفرنسية . ولعل الذى أثار الكتاب ووجههم هذا التوجيه شعورهم القوى بأن المجتمع فى بنائه الحالى غير أهل لمتابعة تطورات الحياة فى صورها الأخيرة ، وأن الثورة القادمة والتغيرات المنظورة لا ينبغى أن ينفرد السياسيون بالإشراف عليها واستغلالها .

وأكثر الكتاب فى العصر الحاضر مضطرون تحت ضغط الحوادث إلى الانضمام إلى أحد المذاهب السياسية الكبيرة التى ذاعت شهرتها ، مثل الفاشية والنازية والشيوعية والديمقراطية ، وهذه المذاهب قائمة على الصراع بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، ويحاول الكتاب جهدهم التوفيق بين مزاجهم الفردى وهذه النظم الاجتماعية الصارمة .

وقد أدى ذلك إلى نشوء تصور جديد لوظيفة الأدب ومكانة الكاتب ، وقد كان المعروف أن الكاتب فنان قبل كل شىء ، وهمه الجمال وحفز الشعور

والتسلية والمتعة ، وهو ينقلنا إلى عالم مخالف للعالم الذى نعيش فيه ، ويسمو بنا فوق متناقضاته ، وينسينا سخافاته وحماقاته ، ويذهلنا عن حوادثه السياسية العارضة وتقلباته العابرة ، وإننا نسد عليه كوى الإلهام ونحجب عنه ضوء الوحى إذا أرغمناه على الخوض فى السياسة ونظمناه فى سلك الدعاة . وليكن الكاتب سياسياً إذا شاء ، ولكن على شريطة ألا يتخذ الأدب ذريعة من ذرائع الدولة ووسيلة من وسائل السياسة ، لأنه إذا فعل ذلك أسف أدبه وقل إحسانه وفقد قيمته . واستخدام الأدب للأغراض السياسية يفسد الأدب ويهبط به عن مستواه الرفيع ، والكاتب الذى يرى نفسه مسوقاً إلى وضع قصة تعلن محاسن النازية أو تدافع عن الشيوعية سيجد نفسه مضطراً إلى أن يشوه الحق ويبتسر الفن لتدعيم مذهبه وإثبات وجهة نظره . وستحفل رواياته بالشخصيات الزائفة والمواقف المصطنعة التى لا يقتضيها منطق الحوادث . ولكن المذاهب السياسية الحديثة لا تبالى ذلك ، وتطالب الكاتب بأن يأخذ جانباً فى المعركة القائمة وينضم إلى صف من الصفوف وينحرف عن تلك النظرية المعروفة نظرية « الفن للفن » ويصبح مسخراً لأغراض أخرى شاء ذلك أو لم يشأ .

وقد أدرك السياسيون فرط عناية الكتاب بالسياسة فحاولوا أن يجتذبوهم إلى مشكلاتهم الحزبية وخلافاتهم السياسية ، وعمل أصحاب الأعمال الكبيرة على الاستفادة من أقلامهم واستثمار مواهبهم ، حتى كادت تنقلب الكتابة إلى نوع من الإعلان وضرب من ضروب الدعوة وتفقد الكثير من الصفات الفنية .

ويحسن أن نفرق بين عناية الكاتب بالسياسة فى الأمم الديمقراطية وعنايته بالسياسة فى الأمم الديكتاتورية . فالكاتب السياسى فى الأمم الديكتاتورية بوق من الأبواق وصدى من الأصداء لا أكثر ولا أقل . وانحطاط مستوى الأدب والفكر فى الأمم الديكتاتورية من المسائل المشاهدة المعروفة ، وتعليلها هين ،

وذلك أن الكاتب الخالق لا يتيسر له الخلق فى أغلب الأوقات إلا إذا شعر بأنه حر واطمأنت نفسه وتساير عنه الخوف . والأدب الحق لا يزدهر إلا حيث يشعر الكاتب بأنه غير مضطر إلى مصانعة الحاكمين ومداهنة الأحزاب .

والعامل الثانى الذى أثر فى الأدب الحديث تأثيراً بعيد المدى هو علم النفس ، وفرويد بتوجيهه النظر إلى مسألة العقل الباطن فتح فى عالم الأدب فتحاً مبيناً وبدأ حركة لها نتائجها البعيدة ، وقد قرنها بعض المفكرين بالثورة الصناعية واستكشاف أمريكا ، وفى الوقت الذى بدأ فيه فرويد رحلته فى عالم العقل الباطن كان كثير من متقدمى الكتاب قد أخذ يشعر بفوضى المجتمع وانحلال روابطه ، ولجأ فريق منهم إلى حمى نفسه يستقرى دوافعها ويراقب هواجسها الخفية ونواجيها الداخلية وما ينتشب فيها من الحرب والصراع بين شتى الميول والأهواء ، وقد وصف بعضهم هذه الحالات وصفاً دقيقاً مثل برست فى الأدب الفرنسى وكافكا فى الأدب الألمانى وجويس فى الأدب الإنجليزى ، وقد تأثر بهم الكثيرون من ناشئة الكتاب ونابتة الجيل التالى لجيلهم .

وفرويد شديد العناية بالفرد ، فهو من بعض الوجوه أقوى أنصار الحرية الفردية فى العصر الحديث ، وقد حاول فرويد أن يقيم الآداب على أسس مغايرة وقواعد جديدة ، والعلم فى رأيه هو المنقذ للإنسانية من الضلال ، وهاديها فى بيداء الحياة ، وحيرة الوجود ، والدين فى رأيه هو الخصم اللدود للعلم . وقد جاء فرويد وأنصاره بأفكار عن طبيعة النفس بعيدة التأثير كثيرة النتائج . وهى تعين على إقامة المجتمع على أسس جديدة واستحداث آداب ملائمة ، والأدب فى حاجة على الدوام إلى مورد عذب يستمد منه الأفكار والتعاليم ويجلوها فى المظهر الأخاذ ويخلع عليها الثوب القشيب . وهو يتردد الآن بين الدفاع عن

مختلف المذاهب السياسية التى تتصارع فى العصر الحاضر وبين المناضلة عن الحرية الفردية .

والعامل الثالث الذى يزيد الموقف تعقيداً هو الاختراعات العلمية ، وهى فى العصر الحاضر قد تسربت إلى مناطق الأدب ومجالات الثقافة ، وتقدم المخترعات العلمية سيرغم الأدب على مراجعة وظيفته والتفكير فى واجبه ، فهل كلمة الراديو المسموعة ستغنى فى المستقبل القريب عن الكلمة المطبوعة ؟ وهل يقلل تقدم فن السينما من الإقبال على قراءة الأقاصيص والروايات ؟

ويرى بعض الباحثين أن الشعر وحده الذى سينجو من الخطر ويفلت من المصير المحزن الذى يترقب الأدب ، وذلك بفضل ما فيه من المجاز والاستعارة والإيقاع والتنغيم ، وكذلك الأساطير لأنها وسيلة صالحة للتربية ، وهى تتغلغل إلى أعماق النفس لأنها لا تثير جدلا ولا تعلن حجة . ومصير الأدب موقوف على مصير المجتمع ، وقد تنبه إلى الخطر الذى يهدد الأدب فى العصر الحاضر من ناحية تقدم الاختراعات العلمية الكاتب الفرنسى الكبير جورج ديهامل ، واستوفى بيان ذلك فى كتابه القيم «الدفاع عن الأدب» فهو يقول فى الفصل الأول من هذا الكتاب «هذه المخترعات التى ابتكرت لتزيد فى عقل الإنسان وتفتح عينيه وأذنيه وتثير ملكاته وتسمو به ، تتضافر الآن جميعها لتقضى عليه وتخنق أنفاسه ، وترهق روحه وتهبط بمثله العليا ، وتستنفد نشاطه وحيويته ، وهل تستطيع الحضارة أن تقوم على جهازى النظر والسمع ؟» ويقول فى مكان آخر من الكتاب نفسه : «يلزم أن يفهم الشعب أن أعز الأغراض وأسماها والمتع الدنيوية ومظاهر التقدم جميعها متوقفة على استعمال العقل وتثقيفه وصقله ، وبدون الكتب تصبح حياتنا الاجتماعية والفردية مستهدفة لخطر الانحدار إلى الهمجية التى لا يشفى من دائها ، ويجب أن يعلم الجميع أن تثقيف العقل أمر

جوهرى للحياة الصالحة ، وأن الكتاب هو رمز الدين » .

ويعتقد المتفائلون أن امتزاج الأدب بالسياسة وتأثره بالاختراعات الحديثة وعلم النفس التحليلى ، سيفتحان له أبواباً كانت من قبل موصدة ، وينقلانه إلى آفاق رحبة جديدة ، ويبدآن صفحات طريفة فى حياة العقل ومستقبل الأدب . والزمن وحده هو الذى سيفصل فى هذه القضية القائمة بين المتشائمين المتوجسين والمتفائلين الآملين .